أساليب التفكير :

التفكير فى الشرق القديم

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضي)

وبعد فذاك لون خيالى من التفكير ؛ بيد أنه يستر وراءه نزعة فلسفية ناشئة تتالب الخرافة ؛ وتسعى إلى إيجاد حل معقول لمشكلة الخير والشر فى العالم : هل هما من مصدر واحد ؟ لا — فذلك ما لا يقبله عقل زرادشت الحكيم ؛ إذ كيف يتسنى أن يصدر النقيضان عن مبدأ واحد ! ؟ لا بد إذن أن مظاهر الشرور من أمراض وجرائم وموت وقبح وشقاء ترجع إلى علة غير العلة التى ترجع إليها مظاهر الخير من عافية وإحسان وفضيلة وحياة وجمال وسعادة . ولكن العقل قاصر كما قلنا ، فهو يفرض وجود العلة ويعجز عن معرفة كنهها ، حينئذ يلوذ بالخيال يلتمس عنده ما لم يجده فى رحاب العقل ، فيخرج بصورة رائعة ترضى نزوعه إلى المعرفة إلى حين : تلك هى صورة الصراع المحتدم بين حزبين على رأس أحدهما « أورموزدا » وعلى رأس الآخر « أهريمان » .

ولكن هذه النتيجة لا تشبع العقل ، ولا تشفى غليله ألالخير أم للشر ؟ وهل يعقد النصر لحزب الحق أم لحزب الباطل ؟ فأجاب زرادشت على هذا السؤال مستنداً إلى الاستدلال البرىء من الهوى والرغبة ، ودعم إجابته بالدليل المنطقى والبرهان ، فقال إنه أنتج فلسفة وفكر تفكيراً فلسفياً ، ولكنه يحكم طوره البكر فى عالم التفكير ، يستجيب لنزعة التفاؤل المتمكنة من نفسه ، فيغلب الخير ، لا ضرورة منطقية ، ولا ليقين عقلى ، ولكن لإيمان قلبى ، ورغبة نفسية ، يحتمان عليه أن ينتصر الخير ويعم الجمال وتسود السعادة فى نهاية الأمر . وهكذا نلمس لدى الفرس ما لمسناه فى تفكير المصريين . دوافع نفسية تحرك الخيال فيصوغ الآراء صياغة حسية ، ويصور العالم صورة خيالية ذاتية لا صورة واقعية موضوعية .

وتقرب من هذه المحاولة الفارسية محاولة هندية يمثلها البراهمة وهم الكهنة الحفاظ على الديانة الفادية [1] التى ترجع إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، والتى توزع قوى الطبيعة على آلهة عدة لكل منها دوره فى تدبيرها . كان البراهمة كهنة لهذه الديانة جمعوا بين العلم والدين ، وليس هذا بعجيب إذا علمنا أن الفادية مشتقة من فيداس [2] أى العلم ، وقد تطورت الديانة الفادية بفضلهم تطوراً اقتضاه تبدل الأحوال ، وارتقاء التفكير ؛ فخرج المذهب البرهمى فى القرن التاسع قبل الميلاد بفكرة فريدة فى هذه العصور الخالية التى تسود فيها الوثنية أو تعدد الآلهة ، هى فكرة الإله الواحد رغم تعدد مظاهره . براهما الذي أخرج العالم من ذاته ، والذى يحفظه ويرعاه ، والذى يهلكه ويفنيه . فهو ثلاثة فى واحد ، أو هو واحد ذو مظاهر ثلاثة ، هو براهما من حيث هو مبدأ الوجود ، وهو « فشنو » إذا نظرنا إليه من حيث عنايته بالكون والمحافظة عليه ، وهو « سيفا » من حيث كونه المهلك . وما براهما وفشنو وسيفا غير أسماء ثلاثة لإرادة واحدة لاحد لها ، وقدرة فريدة لانهاية لها . أما الموجودات أو الجزئيات التى ندركها بحواسنا ، فهى مجرد مظاهر حسية مفكرة لحقيقة كلية واحدة هى « براهما » المنبث فى أرجاء الكون جميعاً . وهكذا يبلغ البراهمة نظرية فلسفية سوف تصادفنا كثيراً فى سياق الحديث عند تاريخ الفلسفة ؛ تلك هى نظرية الحلول ؛ نصادفها عند متصوفة الإسلام فى القرون الوسطى وسبينوزا فى العصور الحديثة . وقد ارتكزوا على هذه النظرية فى تفسير الخير والشر والسعادة والشقاء ؛ فأرجعوا الخير والسعادة واللذة إلى الوحدة ، واعتبروا الكثرة الوهمية والرغبة فى الانفصال من الإرادة الكلية علة الألم والشر والشقاء فى الحياة الدنيا ؛ وعليه يصبح بلوغ السعادة عملا يسيراً ، فما عليك إلا أن تستجيب لنداء الوحدة والحقيقة ، فتتجرد من ذات البدن ، وتتجرد من أوهام الحواس التى تفصلك عن الكل اللانهائى ، وتقطعك عن الأصل الإلهى ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بمجاهدات نفسية ، ورياضات جسدية عنيفة ، تأخذ نفسك بها كما يفعل اليوم فقراء الهنود الذين يتصلون بسبب قريب بهذه الفلسفة القديمة البدائية . وهنا نلمح كيف أدت النظرة الهندية للعالم إلى نظرية عملية ، تستهدف تدبير حياة الفرد

(١) Védame (٢) Védas

والجماعة بما يكفل لهم سعادة أبدية . وهذه اسمى ميزة تسم الفكر الشرق القديم : أعنى بها عدم الوقوف عند تفسير العالم الطبيعى ومجاوز ذلك إلى مباحث أخلاقية فى الخير والشر ، والسعادة والشقاء ، واللذة والألم ، مباحث أفضت إلى حكمة عملية ، ونقصد بالحكمة العملية ذلك الجانب من الفلسفة الذى يتناول بالبحث مبادئ الأخلاق والسياسة .

وما دمنا قد ذكرنا الحكمة العملية فلا بد أن نشير إلى زاهد قبيلة سكيا التوفى سنة ٤٧٧ قبل الميلاد (١) « بوذا » الحكيم الذى جمع من الأتباع ، وخلف من الأنصار ، ما لم يتيسر لكثيرين من قادة الفكر ودعاة الدين فى كثير من العصور . لا بد أن نشير إلى بوذا فهو خير ممثل للحكمة العملية فى الشرق القديم ، وأقدر مفكرى عصره على التحرر من الخرافة ، وأقربهم إلى النزعة الفلسفية التى لا تبالى بالموروث ، ولا تنى عن السعى إلى الحقيقة الخالصة ، حتى لنجد لديه بذور مذهب فلسفى شاع فى العصور الحديثة ، مذهب ينكر وجود جوهر اسمه العقل أو الذات وإنما الوجود ظواهر نفسية ، ووقائع شعورية ، وأفكار تتابع وتتلاحق دون حاجة إلى جوهر يحمل هذه الأمور جميعاً ، فنحن نفكر ونعقل ونتخيل ونُدرك ونشعر ، وتتتابع الأفكار والمعانى والأخيلة والمدركات والمشاعر ، فليس ما يدعونا إلى القول بنفس أو عقل أو ذات تحمل هذه الأمور .

ذلك مبحث فى صميم الفلسفة يعد وثبة فكرية رائعة ، ويضع لبنة من لبنات الميتافيزيقا . وقد استنتج بوذا من هذه النظرية نظرية فى الميتافيزيقا هى إنكار « براهما » أى أصل الوجود عند البراهمة ، استنتجها استنتاجاً منطقياً من رأيه فى الذات الفردية ؛ ولكنه رغم ذلك لا يزال يتصل اتصالا وثيقاً بالفكر الخرافى الذى يتأثر بالدوافع النفسية ، ويستلهم الخيال فى كثير من الأحيان ، ناهيك بالجانب الأخلاقى فى فلسفته الذى يجعل الزهد فضيلة الفضائل ، وفناء الشخصية (النيرفانا) غاية الغايات . ولن أترك الحديث عن اللهم الحكيم ، قبل أن أشير إلى آرائه فى الفلسفة السياسية ، من استنكار لنظام الطبقات ، وإعلان المساواة التامة ، وإقرار بفكرة التعاطف بين البشر ، ومبدأ السلام والمسالمة ؛ وجميعها آراء تستهدف نفس الغاية التى أنتجت فلسفته : وإفناء الشخصية الفردية ، وتغليب الطبيعة العقلية على الطبيعة الحسية ، وإخضاع الإرادة الجزئية للإرادة الكلية .

وآخر مثال أوجزه من التفكير الصينى . ومن أحق بالذكر من بين قادة الفكر الصينى القديم من « كونفوشيوس » ، الذى عاش فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد . أفكاره عملية أى أخلاقية سياسية . ففى الأخلاق يؤكد فكرة الواجب وضرورة صدورها عن العقل ، وضرورة تكميل النفس ويلح على أن الفضيلة اعتدال أى وسط بين الإفراط والتفريط ، وينهى عن التطلع إلى المستقبل فهو هم وألم . وأما فلسفته السياسية ، فترتكز على عداء للحرب وإيمان بالسلام والعالمية . ويعتبر مثلا قديماً من أمثلة الدعوات إلى السلام والإيمان بضرورة جعل العالم أسرة واحدة متحابة متعاونة متكاملة ، فليتأمل أقطاب هيئة الأمم المتحدة هل أتوا بجديد ؟ ولينظر مفكرو الغرب كيف ساهم الشرق القديم فى دعم السلام العالمى والأمن الجماعى بفكره ولما يزل فى دور الطفولة .

بعد هذا العرض السريع لتراث فكرى دفع العقل إلى الأمام بما قدم من غذاء لعصور تالية ، نقف هنيهة نتساءل : أليس من الخطأ أن نقول إن الفكر الشرق القديم خرافى كله ؟ ونجيب عن أنفسنا : إن الخرافة كانت تسود فى هذه العصور ، ولكن الفلسفة كانت تطل برأسها بين الفينة والفينة ، وترسل بارقة مضيئة بين الحين والحين ؛ حتى نرى الفكر الهندى والصينى يضرب بسهم فى عالم الفلسفة ، فقد حاول الهنود والصينيون تفسير بعض جوانب الكون تفسيرات عقلية ، كان يمكن أن تصير فلسفة لولا تقيد ببعض أغلال التقاليد ، وهروع أحياناً إلى الخيال ، وتناثر فى الآراء ، وإعواز إلى مذهب يلم شتات هذه الأفكار المبعثرة والنظرات المتفرقة ، واقتصار على الفلسفة العملية سياسية كانت أو أخلاقية . ولو قد تجرد هؤلاء القدماء من النزعة الدينية الساذجة وأخذوا أنفسهم ببعض التآليف بين النظرات المبعثرة لأمكن أن يخرج اتجاه ميتافيزيقى عام كما حدث عند اليونان إبان عصر الفلسفة .

(حلوان)

عبد المنعم الحفنى
مدرس الفلسفة بحلوان الثانوية

(١) أنظر « دروس فى تاريخ الفلسفة » تأليف الدكتور إبراهيم مدكور والأستاذ يوسف مكرم